حديث قطين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء فى امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام فى موضوع الانشاء ما يأتى :

« تقابل قِطَّان أحدهما سمين تبدو عليه آثار النعمة ، والآخر نحيف يدل منظره على سوء حاله ؛ فماذا يقولان إذا حدث كل منهما صاحبه عن معيشته ؟ »

وقد حار التلاميذ الصغار فيما يضعون على لسان القِطين ، ولم يعرفوا كيف يوجهون الكلام بينهما ، وإلى أىّ غاية ينصرف القول فى محاورتهما ؛ وضاقوا جميعاً وهم أطفال — أن تكون فى رءوسهم عقول السنانير ؛ وأعياهم أن تنزل غرائزهم الطيبة فى هذه المنزلة من البهيمية ومن عيشها خاصة ، فيكتنهوا تدبير هذه القِطاط لحياتها ، وينفذوا إلى طبائعها ، ويندمجوا فى جلودها ، ويأكلوا بأنيابها ، ويمزقوا بمخالبها .

قال بعضهم : وسخطنا على أساتذتنا أشد السخط ، وعبناهم بأقبح العيب ؛ كيف لم يعلمونا من قبل — أن نكون حميراً ، وخيلاً ، وبغالاً ، وثيراناً ، وقردة ، وخنازير ، وفئراناً ، وقططة وما هب ودب ، وما طار ودرج ، وما مشى وانساح ؛ وكيف — ويحهم — لم يلقنونا مع العربية والانجليزية لغات النهيق ، والصهيل ، والشحيج ، والخوار ، وضحك القرد ، وقُباع الخنزير ، وكيف نصِىء ونموء ، ونلغط لَغَطَ الطير ، ونفحّ فحيح الأفعى ، وننكّش كشيش الدبّابات ، إلى ما يتم به هذا العلم اللغوى الجليل الذى تقوم به بلاغة البهائم والطير والحشرات والهمج وأشباهها ..؟

وقال تلميذ خبيث لأستاذه : أما أنا فأوجزتُ وأعجزت ، قال أستاذه : أجدت وأحسنت ، ولله أنت ! وتالله لقد أصبت ! فماذا كتبت ؟ قال كتبت هكذا :

يقول السمين : ناوْ ، ناوْ ، ناوْ . . . فيقول النحيف : نَوْ نَوْ ، نَوْ . . فيرد عليه السمين : نَوْ ، ناوْ ، ناوْ . . فيغضب النحيف ، ويكشر عن أسنانه ، ويحرك ذيله ويصيح : نَوْ ، نَوْ ، نوْ . . . فيلطمه السمين فيخدشه ويصرخ : ناوْ . . . فيثب عليه النحيف ويصطرعان وتختلط « النَّوْنَوَة » لايمتاز صوت من صوت ، ولا يبين معنى من معنى ، ولا يمكن الفهم عنهما فى هذه الحالة إلا بتعب شديد بعد مراجعة قاموس القِطاط . . !

قال الأستاذ : يابنىّ ، بارك الله عليك ! لقد أبدعت الفن إبداعاً فصنعت مايصنع أكبر النوابغ ، يظهر فنه باظهار الطبيعة وإخفاء نفسه ، وما ينطق القطّ بلغتنا إلا معجزة لنبىّ ، ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فلا سبيل إلا ما حكيت ووصفت ، وهو مذهب الواقع ، والواقع هو الجديد فى الأدب ؛ ولقد أرادوك تلميذاً هِرّاً ، فكنت فى إجابتك هِرّاً إستاذاً ، ووافقت السنانير ، وخالفت الناس ، وحقّقت للممتحنين أرقى نظريات الفن العالى ، فان هذا الفن إنما هو فى طريقة الموضوع الفنية ، لا فى تلفيق المواد لهذا الموضوع من هنا وهناك ؛ ولو حفظوا حرمة الأدب ، ورعوا عهد الفن لأدركوا أن فى أسطرك القليلة كلاماً طويلاً بارعاً فى النادرة والتهكم ، وغرابة العبقرية ، وجمالها وصدقها ، وحسن تناولها ، وإحكام تأديتها لما تؤدى ؛ ولكن ما الفرق يابنىّ بين « ناوْ » بالمد ، و « نَوْ » بغير مد ؟ . . . قال التلميذ : هذا عند السنانير كالاشارات التلغرافية : شرطة ونقطة وهكذا . قال يابنى ولكن وزارة المعارف لاتقرّ هذا ولا تعرفه ، وإنما يكون المصحح أستاذاً لا هِرّاً . . . والامتحان كتابى لا شفوى . قال الخبيث : وأنا لم أكن هِرّاً بل كنت إنساناً ، ولكن الموضوع حديث قِطين ، والحكم فى مثل هذا لأهله القائمين به ، لا المتكلفين له ، المتطفلين عليه ؛ فان هم خالفونى قلت لهم : اسألوا القِطاط ؛ أو لا فليأتوا بالقطين : السمين والنحيف ، فليجمعوا بينهما ، وليحرّشوهما ثم ليحضروا الرقباء هذا الامتحان ، وليكتبوا عنهما مايسمعونه وليصفوا منهما مايرونه ، فوالذى خلق السنانير والتلاميذ والممتحنين والمصححين جميعاً — ما يزيد الهرّان على « نَوْ ، وناوْ » ولا يكون القول بينهما إلا من هذا ، ولا يقع إلا ما وصفت ، وما بُدّ من المهارشة والمواثبة بما فى طبيعة القوى والضعيف ، ثم فرار الضعيف مهزوماً ، وينتهى الامتحان !

***

إن مثل هذا الموضوع يشبه تكليف الطالب الصغير خلق هِرتين ، لا الحديث عنهما ؛ فان إجادة الانشاء فى مثل هذا الباب ألوهية عقلية تخلق خلقها السوىّ الجميل نابضاً حياً كأنما وضعت

فى الكلام قلب هِر ، أو جاءت بالهر له قلب من الكلام . وأين هذا من الأطفال فى الحادية عشرة والثانية عشرة وما حولهما ؛ وكيف لهم فى هذه السن أن يمتزجوا بدقائق الوجود ، ويداخلوا أسرار الخليقة ، ويصبحوا مع كل شىء رهناً بعلله ، وعند كل حقيقة موقوفين على أسبابها . وقد قيل لهم من قبل فى السنوات الخالية « كن زهرة وصف . واجعل نفسك حبة قمح وقل » وإنما هذا ونحوه غاية من أبعد غايات النبوة أو الحكمة ؛ إذ النبىّ تعبير إلهى تتخذه الحقيقة الكاملة لتنطق به كلمتها التى تسمى الشريعة ، والحكيم وجه آخر من التعبير ، تتخذه تلك الحقيقة لتلقى منه الكلمة التى تسمّى الفن .

وقد كان فى القديم امتحان مثل هذا ، لم ينجح فيه إلا واحد فقط من آلاف كثيرة ؛ وكان الممتحِن هو الله جل جلاله ؛ والموضوع حديث النملة مع النمل ؛ والناجح سليمان عليه السلام « قالت نملةٌ : يأيها النمل ، أدخلوا مساكنكم ، لا يَحْطِمَنَّكُمْ سليمانُ وجنودُه وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها »

إن الكون كله مستقر بمعانيه الرمزية فى النفس الكاملة ؛ إذ كانت الروح فى ذاتها نوراً ، وكان سر كل شىء هو من النور والشعاع يجرى فى الشعاع كما يجرى الماء فى الماء ، وفى امتزاج الأشعة من النفس والمادة تجاوب روحانى هو بذاته تعبير فى البصيرة وإدراك فى الذهن ، وهو أساس الفن على إختلاف أنواعه : فى الكلمة والصورة ، والمثال والنغْمة ؛ أى الكتابة والشعر والتصوير والحفر والموسيقى .

ومن ذلك لا يكون البيان العالى أتمّ إشراقاً إلا بتمام النفس البليغة فى فضيلتها أو رذيلتها على السواء ؛ فان من عجائب السخرية بهذا الانسان أن يكون تمام الرذيلة فى أثره على العمل الفنى — هو الوجه الآخر لتمام الفضيلة فى أثره على هذا العمل ؛ والنقطة التى ينتهى فيها العلوُّ من محيط الدائرة هى بعينها التى يبدأ منها الانحدار إلى السُّفْل ؛ ومن ثم كانت الفنون لا تُعتبر بالأخلاق ، حتى قال علماؤنا : إن الدين عن الشعر بمعزل . فالأصل هناك سمو التعبير وجماله ، وبلاغة الأداء وروعتُها ؛ ولا يكون السؤال الفنى ما هى قيمة هذه النفس ، ولكن ما طريقتها الفنية ؟ وأى عجيب فى ذلك ؟ أليس لجهنم حق فى كبار أهل الفن ، كما للجنة حق فى نوابغه ؛ وإذا قالت الجنة : هذه فضائلى البليغة ؛ أفلا تقول الجحيم وهذه بلاغة رذائلى . وكيف لعمرى يستطيع إبليس أن يؤدى عمله الفنى . . ويصور بلاغته العالية إلا فى ساقطين من أهل الفكر الجميل ، وساقطات من أهل الجسم الجميل ؟ . .

* * *

لقد بعدنا عن القطين ، وأنا أريد أن أكتب من حديثهما وخبرهما .

كان القط الهزيل مرابطا فى زقاق ، وقد طارد فأرة فانحجرت فى شق ، فوقف المسكين يتربص بها أن تخرج ، ويؤامر نفسه كيف يعالجها فيبتزّها ، وما عقل الحيوان إلا من حرفة عيشه لا من غيرها . وكان القط السمين قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرّج عن نفسه بأن يكون ساعة أو بعض ساعة كالقططة بعضها مع بعض ، لا كأطفال الناس مع أهليهم وذوى عنايتهم . وأبصر الهزيلَ من بعيد فأقبل يمشى نحوه ، ورآه الهزيل وجعل يتأمله وهو يتخلّع تخلُّع الأسد فى مشيته وقد ملأ جلدته من كل أقطارها ونواحيها ، وبسطته النعمة من أطرافه ، وانقلبت فى لحمه غِلظا ، وفى عصبه شدةً ، وفى شعره بريقاً ، وهو يموج فى بدنه من قوة وعافية ، ويكاد إهابه ينشق سِمناً وكدْنة . فانكسرت نفس الهزيل ، ودخلته الحسرة ، وتضعضع لمرأى هذه النعمة مرحة مختالة . وأقبل السمين حتى وقف عليه ، وأدركته الرحمة له إذ رآه نحيفاً متقبضاً ، طاوىَ البطن ، بارز الأضلاع ، كأنما همّت عظامه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر . فقال له : ماذا بك ، ومالى أراك مُتيبّساً كالميت فى قبره غير أنك لم تمت ، ومالك أعطيت الحياة غير أنك لم تحى ، أوليس الهر منا صورة مختزلة من الأسد ، فمالك — ويحك — رجعت صورة مختزلة من الهر ؛ أفلا يسقونك اللبن ، ويطعمونك الشحمة واللحمة ، ويأتونك بالسمك ، ويقطعون لك من الجبن أبيض وأصفر ، ويفتون لك الخبز فى المرق ، ويؤثرك الطفل ببعض طعامه ، وتدللك الفتاة على صدرها ، وتمسحك المرأة بيديها ، ويتناولك الرجل كما يتناول ابنه . ؟ ومالجلدك هذا مغبرّاً كأنك لا تلطعه بلعابك ، ولا تعهده بتنظيف ، وكأنك لم ترقطُّ فتى أو فتاة يجرى الدهان بريقاً فى شعره أو شعرها ، فتحاول أن تصنع بلعابك لشعرك صنيعهما ؛ وأراك متزايل الأعضاء متفككا حتى ضعفت وجهدت ، كأنه لا يركبك من حب النوم على قدر من كسلك وراحتك ، ولا يركبك

من حب الكسل على قدر من نعيمك ورفاهتك ، وكأن جنبيك لم يعرفا طنفسة ولا حشيّة ولا وسادة ولا بساطا ولاطرازاً ، وما أشبهك بأسد أهلكه ألا يجد إلا العشب الأخضر والهشيم اليابس ، فما له لحم يجيء من لحم ، ولادم يكون من دم ، وانحطّ فيه جسم الأسد ، وسكنت فيه روح الحمار !

قال الهزيل : وإن لك لحمة وشحمة ، ولبناً وسمكا ، وجبناً وفُتاتاً ، وإنك لتقضي يومك تلطع جلدك ماسحاً وغاسلاً ، أو تنطرح على الوسائد والطنافس نائماً ومتمدداً . أما والله لقد جاءتك النعمة والبلادة معاً ، وصلحت لك الحياة وفسدت منك الغريزة ، وأحكمت طبعاً ونقضت طباعا ، وربحت شبعاً وخسرت لذة ، عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطف على نفسك ، وحملوك وأعجزوك أن تستقلّ ، وقد صرت معهم كالدجاجة تُسمن لتذبح ، غير أنهم يذبحونك دلالاً وملالاً .

إنك لتأكل من خوان أصحابك ، وتنظر إليهم يأكلون ، وتطمع فى مؤاكلتهم ، فتشبع بالعين والبطن والرغبة ثم لا شيء غير هذا ، وكأنك مرتبط بحبال من اللحم تأكل منها وتحتبس فيها .

إن كان أول مافى الحياة أن تأكل فأهون مافى الحياة أن تأكل ، وما يقتلك شيء كاستواء الحال ، ولا يحييك شيء كتفاوتها ، والبطن لايتجاوز البطن ، ولذته لذته وحدها ، ولكن أين أنت عن إرثك من أسلافك ، وعن العلل الباطنة التى تحركنا إلى لذات أعضائنا ، ومتاع أرواحنا ، وتهبنا من كل ذلك وجودنا الأكبر ، وتجعلنا نعيش من قِبَلِ الجسم كله ، لا من قبل المعدة وحدها ؟

قال السمين : تالله لقد أكسبك الفقر حكمة وحياة ، وأرانى بازائك معدوما بزوال أسلافى منى ، وأراك بازائى موجوداً بوجود أسلافك فيك . ناشدتك الله إلا ماوصفت لى هذه اللذات التى تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشبع ، وتستطيل بها إلى مرتبة الوجود الأكبر من الرضى ؟

فقال الهزيل : إنك ضخم ولكنك أبله ، أماعلمت — ويحك — أن المحنة فى العيش هى فكرة وقوة ، وأن الفكرة والقوة هما لذة ومنفعة ، وأن لهفة الحرمان هى التى تضع فى الكسب لذة الكسب ، وسُعار الجوع هو الذى يجعل فى الطعام من المادة طعاماً آخر من الروح ، وأن ما عُدِل به عنك من الدنيا لاتعوضك منه الشحمة واللحمة ، فان رغباتنا لابد لها أن تجوع وتغتذى كما لابد من مثل ذلك لبطوننا ، ليوجد كلٌّ منهما حياته فى الحياة ؛ والأمور المطمئنة كهذه التى أنت فيها هى للحياة أمراض مطمئنة ، فان لم تنقص من لذتها فهى لن تزيد فى لذتها ، ولكن مكابدة الحياة زيادة فى الحياة نفسها .

وسر السعادة أن تكون فيك القوى الداخلية التى تجعل الأحسن أحسن مما يكون ، وتمنع الأسوأ أن يكون أسوأ مما هو ، وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قارٌّ محصور من الدنيا بين الأيدى والأرجل ؟ إنك كالأسد فى القفص ، صغرت أُجَمَتُهُ ولم تزل تصغر حتى رجعت قفصا يحده ويحبسه ، فصغر هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركة فى جلد ، أما أنا فأسد على مخالبى ووراء أنيابى ، وغَيْضَتى أبداً تتّسع ولا تزال تتسع أبداً ، وإن الحرية لتجعلنى أتشمّم من الهواء لذة مثل لذة الطعام ، وأستروح من التراب لذة كلذّة اللحم ، وما الشقاء إلا خَلّتان من خلال النفس ، أما واحدة فأن يكون فى شرهك ما يجعل الكثير قليلاً ، وهذه ليست لمثلى مادمت على حد الكفاف من العيش — وأما الثانية فأن يكون فى طمعك مايجعل القليل غير قليل ، وهذه ليس لها مثلى مادمت على ذلك الحد من الكفاف . والسعادة والشقاء كالحق والباطل ، كلها من قبل الذات ، لامن قِبَل الأسباب والعلل ، فمن جاراها سعد بها ، ومن عكسها عن مجراها فبها يشقى .

ولقد كنت الساعة أختل فأرة انجحرت فى هذا الشق فطمعت منها لذة وإن لم أطعم لحماً ، وبالأمس رمانى طفل خبيث بحجر يريد عَقْرى فأحدث لى وجعاً ، ولكن الوجع أحدث لى الأحتراس ، وسأغشى الآن هذه الدار التى بازائنا فأية لذة فى السَلّة والخَطْفة ، والاستراق والانتهاب ثم الوثب شداً بعد ذلك ! هل ذقت أنت بروحك لذة الفرصة والنهزة ، أو وجدت فى قلبك راحة المخالسة واستراق الغفلة من فأرة أو جَرَذ ، أو أدركت يوما فرحة النجاة بعد الرَّوَغان من عابث أو باغٍ أو ظالم ؟ وهل نالتك لذة الظفر حين هوّ لك طفل بالضرب فهوّ لته أنت بالعضّ والعقر ففرّ عنك منهزماً لايلوى ؟

قال السمين : وفى الدنيا هذه اللذات كلها وأنا لاأدرى ؟ هلمّ أتوحش معك ، ليكون لى مثل نُكرك ودهائك واحتيالك ، فيكون لى مثل راحتك المكدودة ، ولذتك التعبة ، وعمرك المحكوم